# الفصل الخامس

# الافتتاح بالشرط في سورة الزلزلة

سبع سور في الذكر الحكيم افتتحن بالشرط أربع مكية وثلاث مدنية[1] والأداة في كل الافتتاحات (إذا) وموضوعها على تحقيق وقوع ما يليها ، وهي متقابلة في هذا الموضوع مع (إنْ) فإن موضوعها على الشك في وقوع ما يليها ، ولإذا معنيان الشرطية والظرفية ، وكونها كذلك اقتضى شيئين ذكر الشرط وجوابه ، وذكر حينه ، ويتوزع الحديث في هذين الاتجاهين ، وقد عقدت أواصر للكلام بإذا فالكلام يكون في حدث يقع لا محالة مسببا عن حدث يقع لا محالة أيضا في وقت آنٍ لا محالة أيضا .

وقد انتهى أحد أهل العلم إلى تحديد خصائص للمجموعة الشرطية مجملها أن في معظم هذه السور حديثا عن القيامة ومقدماتها مع ما اقترن به الحديث عنها عن أغراض لها بالمقام نسب ورحم ، نعم وكلهن كذلك عدا سورتي (المنافقون والنصر) .

---

(١) المكيات : الواقعة ، التكوير ، الانفطار ، الانشقاق ، المدنيات : المنافقون ، الزلزلة ، النصر .

وأن الشرط فيها قد تردد كثيرا في السورة الواحدة ، وأن موضوعات السور السبع أمور مستقبلية في الغالب استقبالا حقيقيا ، أو استقبالا باعتبار الحكاية كمطلع سورة النصر ، وقد ذكر أن القيمة البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها ـ والله أعلم ـ آثر القرآن افتتاح هذه السور بالشرط ، هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطا ملاحظا فيه ، ترتب المسبب على السبب فإذا ذكرت أداة الشرط ، وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون فإذا ذكر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق ، تمكن أيما تمكن ، والذي يزيد من هذه القيمة البيانية ـ والكلام للدكتور المطعني ـ لأسلوب الشرط في القرآن الكريم أمران : **الأول :** أن القرآن في غالب الفواتح من هذا النوع لا يكتفي بفعل شرط واحد ـ كما هو الحال في غيره ـ بل يقرن به أشباها ونظائر ، يطول تأمل السامع فيها ، وتضاعف من تشوقه إلى الجواب ، كلما انتقل من جزء إلى جزء ، فيأتيه الجواب بعد تلهف وطول ترقب؟

**الثاني :** أن أجزاء الأسلوب الشرطي في القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمور عادية ، قد لا يهتم بها إنسان ، أو ليس للوقوف على مدلولاتها كبير معنى ، أو ربما تنبأ ـ سلفا ـ بما سيكون عليه الحال ، فلا يفيد بها فائدة جديدة[1] .

والذي ينبغي التنبيه عليه ـ فيما نحن فيه ـ أن مطلع السورة يشكلهُ فعل الشرط وجوابه ، ولذا قد يطول مطلع السورة بطول الجمل المتعاطفة على الفعل والجواب واستخدام (إذا) في السور السبع في مطلعها بدلالتها

(١) انظر بتصرف : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ١٦٣/١ وما بعدها للدكتور عبد العظيم المطعني .

الظرفية إيماء إلى أن المذكور في المطلع ، هو الحين والظرف الذي يقع فيه المقصود ، وهو من المقصود بسبب كما ترى ، فإن النص على الحين والظرف ـ لا سيما إذا كان حينا مصحوبا بأحداث وأهوال تقشعر لها الأبدان ـ النص عليه حينئذ يكون حاثا على إنفاذ المقصد ، ويكون كالتوطئة والتمهيد له ، كما نرجو البيان عنه في سورة الزلزلة .

## موقع السورة في الكتاب العزيز :

السورة الكريمة هي التاسعة والتسعون في ترتيب المصحف الشريف ، والثالثة والتسعون في ترتيب النزول ، وقد وقعت في المصحف الشريف بين البينة والعاديات وقد وقعت البينة تتميما لسورة[1] القدر ، فقد جاءت كاشفة عن القرآن ومهمته ، والتي عظمت ليلة القدر بإنزاله فيها ، فقد وقعت سورة البينة كالعلة لسورة القدر ـ كما قال السيوطي رحمه[2] الله والناس قسمان تجاه هذه البينة التي أنزلت في ليلة القدر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ (البينة:٦، ٧)، ويكونون كذلك حين تزلزل الأرض زلزالها كما يؤدي إليه كلام الفخر[3] ـ رحمه الله ، وقد دلت تراكيب السورتين على هذا التناسب بالتقارب بين آيتي البينة ، وآيتي الزلزلة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (لزلزلة:٧ ، ٨) .

ومع تناسب هذه السورة لسابقتها في ترتيب المصحف الشريف ، فإن

---

(١) راجع : البرهان لابن الزبير ص٢٣٦ .

(٢) راجع تناسق الدرر ص١٥٥ .

(٣) راجع : مفاتيح الغيب ٦٥٣/٨، والبرهان لابن الزبير ص٢٣٧ .

لها تناسبا ظاهرا في ترتيب النزول أيضا ، فقد أعقبت النساء في النزول ، وعمود سورة النساء التواصل والائتلاف ، لذا اشتملت على صلات الأرحام ، وروابط الأسر كما بيناه في موضعه[1] ، والزلزلة على التشتيت والتفرق ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ فتقابلت الزلزلة مع النساء تقابلا ظاهرا ، لأن اليومين متقابلان يوم الدنيا ويوم الآخرة ، فسبحان من أنزله ولله نوره! .

وتلي سورة العاديات سورة الزلزلة ، وفي العاديات حديث عن التشتيت والتفرق بالغارة والقتال في الدنيا ، يتقابل مع حديث التفرق في الآخرة في سورة الزلزلة ، وتجد أهل العلم يفسرون الخير بالمال في العاديات ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وهو متناسب مع ما ختمت به الزلزلة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ . . . ﴾ ، وترى قوله : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ في العاديات متناسبا مع قوله في الزلزلة : ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ عند من فسر الأثقال بالموتى ، وترى قوله : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ في العاديات متناسبا مع قوله في الزلزلة : ﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ وهكذا ترى التناسب بينا ، ومن المحال وضع سورة أخرى : في موضع العاديات عقب الزلزلة[2].

**مقصد السورة :**

يقول البقاعي : ـ رحمه الله ـ ناظرا إلى جملة الشرط وجوابه ، وما ختمت به السورة وإلى اسمها «ومقصودها : انكشاف الأمور ، وظهور المقدور أتم ظهور ، وانقسام الناس في الجزاء في دار البقاء إلى سعادة وشقاء وفي ذلك دل اسمها بتأمل الظرف ومظروفه»[3] وبعبارة أوضح

(١) راجع : سورة النساء من هذا البحث الفصل الأول من الباب الرابع .
(٢) راجع : سورة العاديات من هذا البحث الفصل الرابع من الباب الرابع .
(٣) مصاعد النظر ٢٣١/٣ .

مقصد هذه السورة ـ إن شاء الله ـ انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء عقب انكشاف الأمور وترى هذا المقصود متقاربا مع مقصد سورة الواقعة ، فهي حديث عن انقسام الناس إلى أزواج ثلاثة عقب الواقعة ، ألا ترى تقارب الشرط في الافتتاح هنا مع الشرط المبدل من شرط الافتتاح في الواقعة ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝١ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ (الواقعة:٤، ٥) كأن الزلزلة تلخيص للواقعة ، وكأن الظرف الذي تقع فيه الزلزلة غير الظرف الذي تقع فيه الرجة المهم أن تقارب تراكيب المطالع ، أدى إلى تقارب تراكيب المقاصد ، أو أن تراكيب المقاصد هي التي أدت إلى تقارب تراكيب المطالع أنت تحار إلا أنك لا تستطيع أن تقول هناهنا : إذا رجت الأرض رجها ، وتقول هناك : إذا زلزلت الأرض زلزالا وذلك لأمر ظاهر ، هو أن قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ﴾ جاء إثر قوله ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ فكأن الرج جاء أثرا للوقوع ، وكأن استخدامات القرآن تقول : لا يصلح أن يكون الزلزال أثرا للوقوع ، لذا جاء مضافا هاهنا «زلزالها» ولم يأت الرج مضافا للأرض في الواقعة ، وقد نتج عن الزلزلة أن أخرجت الأرض أثقالها ، ونتج عن الرجة أن بُسّت الجبال بسا ، فهذا حين ـ فيما يبدو فالله أعلم ـ وذلك حين ، يتأيد ذلك بإضافة المصدر إلى الأرض في سورة الزلزلة كما سيأتي .

## مطالع السورة :

قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾

(الزلزلة١-٥) .

ذلك هو حين انقسام الناس ، وقد جاءت تراكيب المطلع على ما اقتضاه المقصود ، وقد افتتحت السورة بظرف الزمان ، وطالت إضافة

الجمل إليه ، تشويقا إلى متعلق الظرف كما يقول ابن عاشور[١] وفي مجيء الظرف في صدر السورة أيضا إيماء إلى أن ما يذكر بعده ليس مقصودا أصليا للسورة ، وإنما هو عنصر في البيان عنه ، ولما كان موقعه من مقصود السورة كذلك ، جاءت تراكيبه على نسق تراكيب المقصود ـ فقد استخدم (إذا) وموضوعها على تحقيق وقوع ما بعدها ، وتأيد ذلك بوقوع الشرط فعلا ماضيا في الخبر ، مع أنه مستقبل في الواقع ، وفي ذلك إيماء إلى تحقق الوقوع ، وكأنه أمر صارف إلى استبيان ما بعد هذا الأمر الواقع (وهو المقصود) ، فالداعي إلى استخدام هذا الأسلوب ليس أمرا خارجيا فيما يقول الفخر في تعليله[٢] للبدء به ، من أنهم كانوا يسألونه متى الساعة؟ فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ . . .﴾ ، نعم يقبل توجيهه بأنه جواب لسؤال الكلف عن وقت تحديث الأرض مع أنها جماد ، وقد علل ابن عاشور للبدء بالظرف ، بأنه كناية عن تحقيق وقوع الموقت[٣] وإنما أداه إلى ذلك استخدام (إذا) في مطلع السورة . التي تدل على الشرط والظرفية والمباغتة .

وفي بناء الفعل ﴿ زُلْزِلَتِ ﴾ للمفعول إيماء إلى توجيه العناية بالحدث دون النظر إلى محدثه ، وذلك يعكس تهويلا للفعل ، يساعد هذا التهويل على بيان المقصود وهذه ظاهرة بيانية مطردة قل أن نخطئها في أحداث اليوم الآخر كما تقول : الدكتورة عائشة عبد الرحمن[٤] ، لا سيما إذا

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٣٠/٤٩٠ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٨/٦٠٣ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٣٠/٤٩٠ .

(٤) راجع : التفسير البيانى ١/٨٠، ٨١، الدكتورة عائشة عبد الرحمن ط . خامسة ، دار المعارف ١٩٧٧م .

ضممنا إليها الدلالة اللغوية لـ(زلزل) أي حركت تحريكا عنيفا متكررا متداركا كما يقول أبو السعود[1] أو حركت حركة شديدة ، أو المراد تحركت واضطربت ، والدليل عليه أنه تعالى يخبر عنها في جميع السورة كما يخبر عن المختار القادر ، لأن هذا أدخل في التهويل[2] وهو كما ترى ناظر إلى سياق السورة في استنباط الدلالة ، وذلك إيماء من أعيان العلماء إلى أن المطلع جاء على نسق تراكيب السورة .

وربما يغريك بتقبل هذا القول ما اختلفوا فيه من وقت وقوع الزلزلة فالأكثرون على وقوعها في الدنيا ، وأنها من أشراط الساعة ، والأقلون على وقوعها في الآخرة ، وانتصر الأقلون لمذهبهم بتعقيبها بقوله : ﴿ **وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾ فإن الإخراج إنما هو في النفخة الثانية ، وكذلك انصراف الناس من الموقف إنما يكون بعد الثانية[3] فسياق السورة كان مناط انتصارهم .

وذهب غيرهم إلى أن الزلزلة تقع مرتين واستدلوا لذلك بقوله : ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ** ﴾[4] (النازعات:٦ ، ٧) وهو قول ابن عباس فيما ذكر أهل العلم وتصاعدت دلالات تهويل الحدث بنسبة المصدر إلى الأرض ﴿ **زِلْزَالَهَا** ﴾ علل الزمخشري لهذه الإضافة فقال : « فإن قلت : ما معنى زلزالها بالإضافة؟ قلت : معناه زلزالها الذي تستوجبه الحكمة ، وهو مشيئة الله ، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده . . . أو زلزالها كله ،

---

(١) انظر : إرشاد العقل السليم ٦٥٣/٨ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٦٥٤/٨ .

(٣) راجع : الفتوحات الإلهية ٥٧٢/٤، والصاوي على الجلالين ٣٤١/٤ .

(٤) راجع : جامع البيان ١٧١/٣٠، والجامع لأحكام القرآن ٧٤٨٧/١٠ .

وجميع ما هو ممكن منه»[1] أو «زلزالها العجيب الذي لا يقادر قدره»[2] وتضعيف الفعل يدل على شدته ، «لأن فعل زلزل مأخوذ من الزلل ، وهو زلق الرجلين فلما عنوا شدة الزلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل»[3] هذا ما تفيده الصيغة ، وقد جاء هذا الفعل بدلالته مسندا إلى الأرض مرتين الأولى بالفعل والثانية بالمصدر ، قال ابن عاشور : «وأضيف ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ إلى ضمير الأرض لإفادة تمكنه منه وتكرره حتى كأنه عرف بنسبته إليها ، لكثرة اتصاله بها»[4] وقد أضاف جناس الاشتقاق فوق ذلك زلزالا في التنغيم الصوتي يتلاءم مع دلالة الجملة (زلزلت ـ زلزالها) وكل ذلك يتعاون في بيان حين التفريق والتشتيت ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ ذلك اللفظ الذي لم يرد في غير السورة الكريمة ، وقد وقعت مادة (زلزل) أربع مرات في الذكر الحكيم (البقرة ٢١٤ ، الحج ١ ، الأحزاب ١١ ، ١١) ومرتين هنا إلا أنها لم تضف إلى الأرض كما هنا وفي ذلك اتساق «مع التلقائية الملحوظة في هذه الآية ، وما بعدها من إخراج الأرض أثقالها ، وتحدثها أخبارها ، وفيها أيضا لفت إلى المعهود والمعروف من الزلزلة[5]، ثم إن في إضافة المصدر إليها إيماء إلى غضبها ، ولهذا الغضب أثر ، هو إخراجها أثقالها ، نعم تطول الجمل ولكن في تصاعد بالغ بالحدث حتى ذروته .

---

(١) الكشاف ٢٧٥/٤، ٢٧٦ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٦٥٣/٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٤٩٠/٣٠ .

(٤) السابق ٤٩١/٣٠ .

(٥) التفسير البيانى ٨٣/١ .

﴿ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴾

والآية أثر لما تدل عليه الآية الماضية ، وقد ذكروا أن أثقالها : الموتى الذين هم في بطنها ، أو أن أثقالها كنوزها ، احتجاجا ببيان النبوة « تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل ، فيقول في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمى ويجيء السارق ، فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا»[1] ولا تعارض إن شاء الله فإنما تغضب الأرض على من لم يطع ربه ، وعلى سبب عصيانه وهو الكنوز .

كأنما تنفث الأرض عن صدرها ، وقد طال غضبها وطال مع ذلك كتمانها ، وقد كان ثقلا عظيما ، وقد أعلى من إظهار الغضب الإظهار في مقام الإضمار ﴿ وَأَخۡرَجَتِ﴾ وهو خروج على خلاف مقتضى الظاهر ، وقد وقع « لزيادة التقرير ، أو للإيماء إلى تبديل الأرض غير الأرض ، أو لأن إخراج الأثقال حال بعض أجزائها»[2] وإخراج الأرض أثقالها بالاندفاع للتخلص من الثقل الباهظ[3] ، كما يشهد له قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴾ (الانشقاق:٣ ، ٤) ثم إن هذه الآية ، وما توحي به من غضب الأرض والغاضب يلقي بالشيء على غير نظام ، تتناسب مع قوله ﴿ أَشۡتَاتٗا ﴾ في السورة الكريمة والأثقال تتناسب مع ذلك

(١) راجع : جامع البيان ١٧١/٣٠، والكشاف ٢٧٦/٤، والجامع لأحكام القرآن ٧٤٨٨/١٠، وتفسير ابن كثير ٥٣٩/٤، ومفاتيح الغيب ٦٥٤/٨، والبيضاوي ٥٧١/٢، وإرشاد العقل السليم ٦٥٣/٨، والصاوي على الجلالين ٣٤٢/٤، والفتوحات ٥٧٢/٤، والتحرير والتنوير ٤٩١/٣٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٦٥٣/٨، ٦٥٤ .

(٣) راجع : التفسير البياني ٨٥/١ .

أيضا ، وتتناسب مع ما قبلها من الاهتمام ببيان الحدث وتأتي الآية التالية كاشفة أثر ذلك على الإنسان .

﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ .

لا ريب يفسر العلماء مفردات السورة بما يلائم سياقها ، لذا ذكر بعضهم أن المراد بالإنسان الكافر ، وهؤلاء ينظرون إلى ما توحي به الجملتان الأوليان من الغضب الظاهر للأرض ، وبيان السنة والقرآن قاضيان بغضب ظواهر الكون على العصاة ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (الدخان:٢٩) وقال آخرون اللام للجنس أي كل إنسان[١] وهو قول من جعل الزلزلة في الدنيا من أشراط الساعة ، والقول الأول قول من جعلها في الآخرة .

والاستفهام خرج إلى المجاز ، وهو استفهام تعجبي استعظاما لما شاهدوه من الأمر الهائل ، أو استفهام إنكاري تعجبي ، فإن المدهوش قد ينكر الشيء ، ولذلك أثره في الدلالة على هول الحدث ، واستغلاق الأمر على الإنسان حينئذ . وهو متناسق مع سياق السورة[٢] ، ولو قال ما أعظم حالها أو غير ذلك لما تناسب مع النسق السابق واللاحق ، وإنما كان ذلك يدل على أن أمرها لم يتغير تغيرا بالغا يقتضي أن يذكر الخبر بالأسلوب المعهود .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ .

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٨/٦٥٤، ٦٥٥،والقرطبى ١٠/٤٧٨٨، والبيضاوي ٢/٥٧١ .

(٢) راجع : في دلالة هذا الاستفهام مفاتيح الغيب ٨/٦٥٥، والقرطبي ١٠/٧٤٨٨، وأبو السعود ٨/٦٥٤، وابن كثير ٤/٥٣٩، والجلالين ٢/٥٧١ بهامش البيضاوي والفتوحات الإلهية ٤/٥٧٣، والتفسير البياني ١/٨٦ .

مجيء (إذ) منونة هاهنا معلم لفظي لمعاقد الكلام ، ولفت إلى الجمل السابقة لفهم المعنى ، ونمط الكلام بغير قوله : يومئذ (إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زلزالها تحدث أخبارها) ، فالجملة هي جواب الشرط الذي تصدر السورة الكريمة ، وكأن مجيء إذ لفت إلى استحضار الهول الماضي في الشرط ، قبل الإلقاء بالجواب «فالتنوين عوض عن الجمل الثلاث المذكورة بعد إذا»[1] ويومئذ بدل من إذا «فالعامل فيه هو العامل في المبدل منه»[2].

واختلفوا في التحديث قال أبو السعود : «تحدث الخلق أخبارها إما بلسان الحال حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها وإما بلسان المقال حيث ينطقها الله تعالى فتخبر بما عمل عليها من شر»[3] .

ويؤيد الثاني ما صح عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية ثم قال : «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ـ قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها» قال الترمذي حديث حسن صحيح[4] .

وذلك متلائم مع ما تصور التراكيب الماضية من غضب الأرض ، ويؤيده ما جاء بعده من قوله : ﴿ **بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا** ﴾ وما يومئ إليه حذف أحد مفعولي (تحدث) والأصل تحدث الخلق أخبارها «إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيما لليوم»[5] والأمور

---

(١) الصاوي على الجلالين ٣٤٢/٤ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٥٧٣/٤ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٦٥٤/٨، وهو ملخص ما دار حوله كلام الأئمة .

(٤) ابن كثير ٥٣٩/٤ .

(٥) راجع : الكشاف ٢٧٦/٤، مفاتيح الغيب ٦٥٥/٨ .

حينئذ جارية على الحقيقة فكأن الآية من تتميم نفثة الأرض ، التي أذن الله لها فتزلزلت وأخرجت أثقالها وقد أعقبتها الآية التي تدفع المجاز عنها .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ .

« أي أنها تحدث أخبارها بوحي الله »[1] فالباء على ذلك سببية ولله در البيضاوي في قوله : « إذ لها في ذلك تشف من العصاة »[2] وكلامه يومئ إلى مناسبة الآية لما قبلها ، وهي متعلقة بقوله : (تحدث) في أحد قولي جار الله وأبي السعود[3] .

« وإنما عدل عن فعل قال لها إلى فعل ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ لأنه حكاية عن تكوين لا عن قول لفظي »[4] وبعد الحديث عن هول اليوم وحديث الأرض ، وانكشاف كل الأمور ، وإخراج المدفون ﴿ أَثْقَالَهَا ﴾ يأتي انقسام الناس .

## آيات انقسام الناس وعلاقتها بالمطلع :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ .

وقد جاءت (إذ) بدورها لعقد الكلام بما مضى من سياق السورة ، فهي ناظرة إلى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ ﴾ لأنها بدل منها ، والأخرى بدورها ناظرة إلى المطلع وما استتبع ، بل إن هذه الجملة هي جواب الشرط عند ابن عاشور

---

(١) جامع البيان ١٧٢/٣٠، القرطبي ٧٤٩٠/١٠ .

(٢) أنوار التنزيل ٥٧١/٢ .

(٣) راجع : الكشاف ٢٧٦/٤، وإرشاد العقل السليم ٦٥٥/٨، والتحرير والتنوير ٤٩٢/٣٠، ٤٩٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٩٣/٣٠ أي من أمر (كن) .

أرأيت إلى قوله عند قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ ﴾ «وجملة ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ جواب إذا باعتبار ما أبدل منها من قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ ﴾ فيومئذ بدل من ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ »[1].

ومهمة إذ قائمة سواء أكانت بدلاً من ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ ﴾ ، أو كان ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ منصوبا بمصدر ، أو باذكر مقدّرا[2] ، وهذه الآية هي التي انتصر بها القائلون بأن الزلزلة تقع بعد النفخة الثانية ، لذا كان معنى يصدر عندهم «يرجعون عن الحساب . . . فكأنهم وردوا القبور ، فدفنوا فيها ، ثم صدروا عنها»[3] وفي التعبير بصدر استعارة حيث «أطلق هنا فعل (يصدر) على خروج الناس إلى الحشر جماعات ، أو انصرافهم من المحشر إلى مآويهم من الجنة أو النار ، تشبيها بانصراف الناس عن الماء بعد الورود»[4].

وتفسر الدكتورة عائشة عبد الرحمن الصدر في السورة بنقيض الورد تعلل فتقول : «لأن في ربطهما سر الدلالة الموحية بأن الحياة الدنيا ليست بدار مقام ، وإنما هي رحلة نجتازها ، ولا بد من تأمين طريق العودة والصدر ، ولا يمكن أن يغني من يصدر في هذا الموقف أي لفظ آخر ، أو يقوم مقامه إذ تتمثل لهم به الدنيا موردا يجب أن يؤمنوا الصدر عنه»[5].

وأرى أن هذا الفعل متناغم مع تعجب الإنسان من حال الإنكار ، لأنه حينئذ يتذكر أعماله في الدنيا ، فكأنه الورد له ، فلئن كانت خيرا فلقد صدر

---

(١) التحرير والتنوير ٤٩٢/٣٠ .

(٢) راجع : الفتوحات الإسلامية ٥٧٣/٤، والصاوي ٣٤٢/٤ .

(٣) القرطبي ٧٤٩٠/١٠، ٧٤٩١ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٩٣/٣٠ .

(٥) التفسير البياني ٩٣/١ .

عن ري ، ولئن كانت غير ذلك ، فلقد صدر عن ظمأ ، ألا ترى أن ما مضى من الأهوال يعين على ذلك ، وأن ما يأتي من التقسيم يعين عليه أيضا ، ولم يأت هذا الفعل إلا في سورة القصص الآية (٢٣) في قصة ابنتي شعيب ودلالته هناك ظاهرة ، وهاهنا دلالته مترجمة عما يجري فيه السياق من الأهوال الموجبة الظمأ إلى ذرة الخير ، ويعين على هذه الدلالة أيضا هذا الحال (أشتاتا) فكل قد تفرق باحثا ومتذكرا ذرات خيره وذرات شره ، ولم تأت أشتاتا إلا في هذا الموضع ، وهي متناغمة مع فعل الشرط في الآية الأولى وما عطف عليها كما ذكرنا ، والرؤية يجوز أن تكون بصرية ، ويجوز أن تكون علمية بمعنى رؤية جزائهم ، وذلك من ثراء التعبير القرآني ، فهم عندما يرون أعمالهم يعرفون جزاءهم ، وهم عندما يرون جزاءهم يعرفون أعمالهم ، والملحوظ أن الفعل (ليروا) جاء مبنيا للمجهول ، وفي ذلك توجيه للاهتمام بالحدث .

أرأيت إلى تعليق هذا الفعل بلام التعليل ، وكيف جعل كل ما مضى من السياق ، ومن صدور الناس سببا في رؤيتهم أعمالهم ، وجعل رؤية أعمالهم مسببا ، جريا على نسق المطلع في ترتب المسبب على السبب بين فعل الشرط وجزائه[1] .

وينقل أبو جعفر نسقا آخر لهذه الآية وما مثلها يقول : « وقوله : (يومئذ يصدر) : قيل : إن معنى هذه الكلمة التأخير ، والتقدير : ليروا أعمالهم يومئذ يصدر الناس أشتاتا قالوا : ولكنه اعترض بين ذلك بهذه الكلمة ، ومعنى قوله : يومئذ يصدر الناس أشتاتا عن موقف الحساب فرقا متفرقين »[2] ، وقوة أواصر الجمل في السورة ، هو الذي أدى إلى هذا ،

---

(١) أرجو أن تكون على ذكر من أن ما نكتبه مستفاد من كلام أهل العلم من المراجع المذكورة في ذيل ما مضى من الصفحات .

(٢) جامع البيان ٣٠/٧٢ .

والملحوظ أنه أضاف الأعمال إليهم وفي ذلك تناسب مع معنى صدر ، فهي مناط وردهم الذي عنه يصدرون والتعبير بذرات الخير وذرات الشر يساعد على ذلك أيضا ، ويصور مدى ظمئهم إلى أعمالهم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وقعت هاتان الآيتان تفصيلا لما قبلهما ، والفاء فاء السببية ، نقل الشيخ الجمل ما يؤدي إلى ذلك فقال : أو صادرين عن الموقف كل إلى داره ، ليرى جزاء عمله ، ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلا للجملة التي قبله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ...﴾»[1] أو الفاء فاء التفريع ، قال ابن عاشور : «تفريع على قوله : ﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ تفريع الفذلكة ، انتقالا للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء ، والتفريع قاض بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتا»[2] واستخدام أسلوب الشرط ، جار في نسق مطلع السورة ، أو نسق مطلع السورة جار هو فيه ، وفيه من ترتب المسبب على السبب ما في المطلع ، واستخدام الذرة متناسب مع الزلزلة ، ومع إخراج الأرض أثقالها ، ومع أشتاتا ، فنسق السورة جار في التشتت والتفرق ، وقد اجتهدوا في بيان معنى (الذرة) حتى بلغوا أن الذرة لا زنة لها ، والظاهر أن المقصود من هذا اللفظ خفة الوزن ، وذلك متناسق مع استخدام يصدر فيما مضى ، ومتشارب من سياق المطلع ودهشة الإنسان لما يرى من الأهوال ، حتى يبعثه ذلك إلى رؤية ذرات خيره ، والجد في الهرب من ذرات شره ، وقد ظهر أن قطب مقصود السورة قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ والآيتان الأخريان

(١) الفتوحات الإلهية ٤/٥٧٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٩٤ .

آيتان جامعتان فاذتان ، فيما وصف النبي ﷺ كما في الموطأ وقال عنها ابن مسعود : هذه أحكم آية في القرآن ، وقد ذكروا أن صعصعة جد الفرزدق قدم على النبي ﷺ يستقرئه القرآن ، فقرأ عليه هذه الآية ، فقال صعصعة : حسبي فقد انتهت الموعظة لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها ، وفيهما قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، وذلك دال على اصطحابهم سياق السورة كلها ، وقد وصف النبي ﷺ السورة بأنها سورة جامعة فيما طلب إليه رجل «أقرئنى يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه إذا زلزلت الأرض .....»[1].

وقد بنيت هاتان الآيتان على أسلوب المقابلة ، وهو متناسب مع أشتاتا الماضي الذي هو قيد في ﴿ **يَصْدُرُ** ﴾ وترى قوله : ﴿ **مِثْقَالَ** ﴾ يتناسب مع ﴿ **أَثْقَالَهَا** ﴾ وليس قوله : ﴿ **يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا** . . . ﴾ تكرارا يقول الكرماني : «قوله : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا** . . .﴾ وأعاده مرة أخرى ليس بتكرار ، لأن الأول متصل بقوله : ﴿ **خَيْرًا يَرَهُ** ﴾ والثاني : متصل بقوله : ﴿ **شَرًّا يَرَهُ** ﴾[2].

والآيتان بنيتا على أسلوب الشرط شأن المطلع ، وتشاربتا من دلالته وكأنهما نتيجتا زلزلة الأرض وإخراجها الأثقال وقد شاع أسلوب الشرط في السورة الكريمة تناسبا مع المطلع . فالله أعلم .

* * *

(١) انظر بتصرف : الكشاف ٢٧٦/٤، والقرطبي ٧٤٩١/١٠، والفتوحات ٥٧٤/٤، والبيضاوي ٥٧١/٢، والصاوي ٣٤٢/٤، وابن كثير ٥٤١/٤، والتحرير والتنوير ٤٩٤/٣٠، ٤٩٥، والتفسير البياني ٩٧/١ .

(٢) البرهان للكرماني ، ص٢٣٣ .